القصص

ورقة النصيب

للأســـتاذ محمد سعيد العريان

جلس إسماعيل على المقعد الخشبي بجانب غرفته على السطح، يغني في حنين الواجد ولهفة المشتاق بعض أغنيات بلاده، ويتابع بعينيه الشمس الغاربة منحدرة انحدارها اليوميّ، كأنها جمرة كبيرة تُطفأ في النيل

كان يعيش وحده في هذه الغرفة من منزل كبير في حي « بولاق » يشرف من بعدٍ على النيل، فكانت سلوته وأنسه أن يجلس يباها عصرَ كل يوم، من لدن عودته من المدرسة حتى يعم الظلام؛ ثم ينهض فيسرج مصباحه ويكبّ على مصوّراته ودفاتره

وقد انحدر منذ عام واحد من بلده في الصعيد الأدنى عقب حصوله على شهادة (الكفاءة) ليطلب العلم بمدرسة الفنون

كم كان مفتوناً بالقاهرة قبل أن يهبط اليها، ولوعاً بها أشد الولع. ولعله لم يمعن في الجد والدأب للحصول على الشهادة، إلا لأنه كان موعوداً أن يرسل الى القاهرة إن جاز الامتحان!

فلما هبط اليها إذا هي تتضاءل وتتضاءل على الأيام، حتى لم تعد إلا هذا الحيّ العتيق الذي يسكنه، وهذه الطريقَ الملتوية التي يسلكها كل يوم بين مدرسته والبيت، وهذا السطحَ الذي يشرف منه على أطلال الحلم السعيد — أطلال القاهرة التي عرفها في الخيال، واستمتع فيها بلذة المنى ووهم الحب ودنيا الشباب!

وكم كان يتمنى أن يتيح له الحظ ليلةً سعيدة من تلك الليالي العابثة التي عاشها في القاهرة أولَ ما هبط اليها! ولكن... ولكن من أين له المال؟

إنه ما يزال يذكر في لهفة وشوق تلك الليالي السعيدة؛

تحصي. وقضى في إخراجها زهاء اثني عشر عاماً. وكان أثناء ذلك يلقي خطاباته ويخرج رسائله وكتبه باللغة الجديدة التي اختارها.

ولما ظهرت ترجمة الأنجيل الجديدة في سنة ١٥٣٤ في ڤتمبرج، كان ظهورها ظفراً عظيماً في الكنيسة وفي الأسرة معاً، وكان فجر اللغة الألمانية الجديدة. وطبع أنجيل لوتر أربع عشرة مرة في كل مرة ثلاثة آلاف نسخة، وذاع في طول البلاد الألمانية وعرضها، وأقبل الشعب على قراءته وحفظه، وبدأت الشعوب الألمانية المختلفة تتبادل التفاهم والتعامل باللغة الموحدة. وإنجيل لوتر هو الأصل الأول الذي تقوم عليه اللغة الألمانية المعاصرة مع شيء من التغيير والتطور، وما زالت لغته مفهومة لجمهرة المثقفين والمتعلمين

في الأكاديمية الفرنسية

نقص عدد الخالدين أعضاء الأكاديمية الفرنسية في هذا العام خمسة، فأصبحوا اليوم خمسة وثلاثين بديلاً من أربعين؛ فخلت مقاعد بريون وكاميل جوليان والماريشال ليوتي ثم بارتو وبوانكاريه بالوفاة تباعاً. ولم تشهد الأكاديمية الفرنسية منذ أمد بعيد مثل هذه الثغرة في كراسيها. والمعروف أن المرشح لكرسي جوليان هو جورج دوهامل، ولكن ينافسه ليون بيرار؛ وأما المرشح لكرسي بوانكاريه فيقال إنه سيكون مسيو دومرج الذي خلف مسيو بوانكاريه في رياسة الجمهورية ثم في رياسة الحكومة

وكان انتظام بوانكاريه في الأكاديمية في التاسع من ديسمبر سنة ١٩٠٩ في الكرسي الذي خلا بوفاة أميل جيهار. واستقبله المؤرخ الكبير ارنست لاڤيس مدير الأكاديمية يومئذ بهذه الكلمات التي تغدو فتتردد اليوم: « إن ذكاءك يجعلك على اتصال مع عمال الفكر جميعاً. فأنت ضوء من أضواء الحاماة، وأنت ضوء من أضواء البرلمان؛ وإن الأكاديمية الفرنسية لتستقبلك باسطة الذراعين... ثم إن فيك قوة، قد تغدو هائلة، يوم تعتقد أن السياسة تتطلب رجالها »

وما يزال يذكر أيضاً في ألم وحسرة أنه احتمل مما أنفق في تلك الليالات ما لم تكن له به طاقة ، من ألم الجوع وذل الحرمان ، وأبى أن يكتب لأبيه يومئذ أنه فارغ اليد مما أسرف على نفسه

وقنع من أحلامه بهذه السكنى الهادئة ، وبأن يعيش من الجنة في ظل حائطها الفينان . وعرف فيه بنات الدار شاباً جم الحياء ، عفيف اللسان والنظر ؛ فألفن الصعود الى السطح في الأصيل يستمعن الى ترجيع أغانيه في طرب ونشوة ، ثم يتفرقن قبل أن يزحف الظلام ؛ وألف إسماعيل أن يراهن كل يوم ، وأن يبادلهن الحديث البريء في شؤون وفنون . . . وزال الحجاب بينهما على الأيام

* * *

وأطال إسماعيل الجلوس يومئذ حتى غابت الشمس ، ولم تصعد واحدة . تُرى ما ذا منعهن الليلة ، وقد اعتدْنَ واعتاد منذ شهر أو يزيد — منذ سكن هذه الدار — أن يجالسهن جميعاً أو أشتاتا ، ساعةً أو بعضَ ساعة كلَّ مساء ؟ . . . ومد الظلام رواقه على القاهرة ، وعلى قلب المبعد الهفهان

ودخل غرفته فأشعل مصباحه وبسط دفتره ، فاذا هو لا يكاد يرى ، واذا الكلمات والسطور تتلوّى أمام عينيه ، كما تشاهد فرقة زنجية راقصة . . . !

وطوى دفاتره وارتدى ثيابه وخرج الى الطريق ؛ كانت الليلة ليلةَ الجمعة ، فلم يجد حرجاً أن يقضيها في السينما . . . ووقف ببابها متردداً وهو يحصي النقود في جيبه ، وعيناه تتبعان المارة أزواجاً وجماعات ، وهو وحده من بينهم لا يتأبّط إلا همَّه ! ليته كان يستطيع أن يدعو واحدة من صديقاته في الدار الى نزهة ، فيصحبها ذراعاً الى ذراع في الطريق كهؤلاء الذين يرى ! ولكن من أين له ، من أين له المال ؟

كم يكفيه ليقضي ليلة سعيدة في صحبة فتاة ؟ لقد عرف القاهرة الآن عرفاناً تاماً ، فلا سبيل الى أن يُخدع ؛ سيشاهد معها السينما في شرفة ذات أستار ، ويتعشيان معاً في مطعم فاخر ، ثم يستقلان سيارة الى الهرم ، ويشترى لها كل ما تهفو نفسها اليه في الطريق ، وبعدئذ . . . وبعدئذ يعودان الى الدار

وفرغ من حسبته وهو يبسط أصابعه ويطويها يحصي ما أنفق ، وعيناه تأخذان كلَّ من يمرّ به . . . جنيه ، جنيه واجد سيمنحه سعادة ليلة ! وسخر من نفسه حين انتهى الى ذلك : من أين له الجنيه ؟

ومرّ به غلام يبيع الجنيهات بالقروش ؛ يبيع النصيب ! ومدّ إسماعيل يده فأعطى البائع قرشاً ، وتناول ورقة قطواها بعناية ووضعها في جيبه ؛ كأنما هو يطوى الجنيه الذى سيصل بين يقظته وأحلامه . ثم عاد الى البيت ، فلم يشهد السينما

لم يفكر في شيء من أمره تلك الليلة ، فنام ملء عينيه وملء بطنه ! ورأى أباه في الرؤيا بجلبابه الأسود الفضفاض ، وعمامته التي تكبس أذنيه وبعض وجهه ؛ جالساً بين عرائر الفول على ظهر المركب المنحدرة الى الشمال ، يحصي ربحه ونفقاته ، وقد اغبرّت لحيته وعلا التراب كتفيه

ونهض في الصباح ففسى بكل ما كان من أمره . وصعدت احدى صواحبه الى السطح لبعض شأنها ، فحياها وحيته وهو يبتسم ، كأنه يخفي عنها مفاجأة سارة . وعادت الفتاة وعاد اسماعيل الى شئونه

وأوقد النار ، وراح يهيء الفول بيده على طريقة بلاده ؛ سوف لا يتغدى في المدرسة هذا اليوم لأنه يوم عطلة ، وفي فطوره الفول مايغني عن الغداء ، فلا تختل ميزانية اليوم !

ومرّ يومان وراح يكشف عن بخته بين أوراق النصيب . . .

وترقب الفتيات أن يسمعن غناءه فيصعدن اليه ، ولكنه لم يعد ، واستقلّ أول قطار الى الصعيد . . .

مائة جنيه ! يا للبخت ! لم تكن أحلامه لترتفع الى ذلك ! إنها لثروة . وقسم النقود قسمين ، واشترى حافظة ثمينة فوضع فيها بعض مايربح ، وخاط جيبه على الباقي . . . لقد دبّر أمراً ليخدع أباه ، حتى لا يحرمه المالَ كلَّه !

* * *

وخرج الشيخ متولي من المسجد يداعب سبحته بيده ، ويتمتم بالتسبيح والدعاء ، وهو في هم لمقدم ولده من غير داعية . . . وقبّل الفتى يد أبيه ، وقال له وهو يبتسم :

— الحمد لله على سلامتك يا أبي ، لقد كنت مشتاقاً اليك !

— مشتاقاً اليّ ! وهل جئت من أجل ذلك ؟ حسبك رجلاً يا اسماعيل !

— نعم . . . ولكن . . .

— لكن الرجل يجب أن يكون على قوة احتمال وصبر ، ولستَ ولدى إن لم تكن رجلاً

— بلى ، وإنما قنعت لأمر . . .

— أيّ أمر ؟

— لقد ربحت خمسين جنيهاً فرأيت أن أجعلها عندك !

— خمسين جنيهاً ؟

— نعم !

وانبسطت أسارير الرجل ، وداعبت شفتيه ابتسامة ، واتسعت حدقتاه ، وعاد يقول :

— ومن أين لك رأس المال ؟ لم تخبرني من قبل أنك في تجارة !

— لقد ربحت ورقة نصيب !

— وَيْ ! ورقة نصيب ؟ قِمار ؟ مَيْسِر ؟

واستوى عوده ، وانكمشت يده واختلجت شفتاه ، ثم قال :

— لا لا ، ويحك ! لا تجعلها في مالى ، إنني رجل شريف ، إن مالى من عرَق جبيني فلا أريد أن يمحقه المال الحرام !

— أبى !

— اسكت ! ثم ردَّها إليهم ، دعهم يفرقونها على أصحابها المساكين ، من يدرِ كَمْ بائس اجتمعت القروش حتى عادت خمسين جنيهاً ؟ إنهم يخدعون الجهال البائسين فيسلبونهم القروش القليلة التي يملكونها ، ليوهموهم أنهم سيقاسمونهم بعض ما يجمعون ؛ بعض ما يسرقون !

— وهل يمكن . . .

— يمكن أوْ لا يمكن ، فلن أجعلها في مالى ، إنها ملوّثة ، قذرة ، هل تعرف من أين اجتمعت ؟

— لا أعرف

— المال الحلال يُشرَف دائماً مأتاه . . .

كان قلب الولد يضحك ووجهه عابس ، ولم تنته المناقشة بينهما الى حد ؛ لقد تحرّج الشيخ الورع أن يضمّ ربح (الميسر) الى ماله ، ولكنه لم يسأل نفسه عما سيفعل ولده بالمال

***

وعاد اسماعيل الى القاهرة ، ولكنه لم يعد الى داره إلا بعد ليالٍ ثلاث . . وأطل الفتيات من خلف الباب يشهدن اسماعيل عائداً الى الدار ، يصعد الدرج في زهو وكبرياء ، وعليه حلة جديدة ، وفي عينيه فتور ينبيء أنه قضى ليله سهران .

وترامى إليهن غناؤه من فوق السطح أكثر حناناً وفتنة ، كما بدا هو أكثر مرحاً ونشاطاً مما كان . وتبادل الفتيات النظر ، ثم ولجن غرفهن وغلّقن الأبواب

لم تحاول واحدة منهن أن تصعد اليه بمرأى صواحبها ، فقد بدا لهن مما تغير من هيئته وحركاته كأنه شخص آخر غير اسماعيل الذي يعرفنه ويثقن بعفته وأدبه ، وكأنما ألْسِقَ إليهن جميعاً معنىً واحد ، فخجلن أن يبدون له ، وإن أخذت كل واحدة منهن تؤمل أن تجد فرصة من غفلة رفيقاتها لتصعد اليه وحيدة

وسبقتهن (حكمت) الى ذاك ، ولكنها لم تُظهر له أو لواحدة منهن أنها تعمدت أن تصعد

واستقبلها اسماعيل ضاحكا ، وهزّ يدها بلطف ، وجلسا يتبادلان الحديث . ثم افترقا على ميعاد . . . ووجد الفتى تعبير رؤياه ، وكان حُلماً أشرق عليه الصبح ، فأتمته اليقظة التي تصنع الأحلام

ولكنه لم يقنع بسعادة ليلة ، وعاد يتعرّف القاهرة من جديد ، القاهرةَ التي فتنته قبل أن يراها ، والتي ذاق فيها من ألم الحرمان أكثر مما ذاق من لذة الوهم ؛ وراح ينتقم لشهوات نفسه التي قمعها على ألم وضيق عاما وبعضَ عام

ونفدت دراهمه

***

لم تجر سفينة الشيخ متولى مجراها كما كانت ، فركدت ريحه ، وأدبرت أيامه ، وعادت الحياة تقتضيه مضاعفة الجهد وبذل الموفور

وجلس اسماعيل مع أبيه ذات يوم صائفٍ بباب متجره ، ومر بائع النصيب ؛ وتحلّب لعاب الفتى وطارت أمانيه الى هناك ؛ الى القاهرة وليالى القاهرة ؛ والى حكمت وصواحب حكمت ! ولكنه أفاق من حلمه إذ رأى ذراعه الى ذراع أبيه . . . والتفت فاذا الغلام واقف ، وإذا أبوه يخرج من جيبه أوراقاً

يكشف بينها عن بخته ، ثم يمزقها ويلقيها ، وإذا هو يشترى غيرها فيطويها ويجعلها فى جيبه ، ليضم صدره على أمل جديد ... !

وتَبَالَهَ الفتى فنهض من مجلسه ليخفى ابتسامة ساخرة ، وعلى طرف لسانه كلام . . .

لم يعد الشيخ متولى يسأل نفسه : من أين اجتمعت هذه الجنيهات التى يحاول أن يشتريها بالقروش ! فلعله كان يعلم أنها اجتمعت من قروشه الكثيرة التى أدّاها هو الى باعة البخت ، منذ تعلّم أن يحاول شراء البخت بالمال ... منذ رع ولده ... !

وضحك (إبليس) من الشيخ متولى وهو يمزق الأوراق ويشترى غيرها ، وقال لشيطان صغير وهو يعلمه :

« أنظر هذا الأبله ؛ ما أرسلت اليه ابنه إلاّ رسالتى ، فقد علقته الحبالة . حسب الانسان الضعيف أن أُرِيَهُ الحرامَ مرة ؛ فهذا أول عملى فى طبيعته »

قال الشيطان الصغير « ثم بعد ذلك ؟ » قال المعلم « بعد ذلك — أيها الأبله — طبيعتُه . . . ! »

محمد سعيد العريان

الشـــاعر والوردة

فى سنة ١٢٥٧ ميلادية فى إحدى قرى ألمانيا على ضفة نهر الرين ، كان البارون أوتودى سيد القاطعة مشهوراً بين قومه بثروته الطائلة وأحكامه القاسية

جمع هذا الرجل كل ما ملك من ذهب وجواهر ووضعها فى صناديق مفتوحة فى قاعة تحت الأرض ، وكانت الشمس تدخل هذه القاعة من ثغرة فى نهايتها فتضىء بأشعتها هذه الجواهر الغالية

وكان البارون يجد تسلية لا تعدلها تسلية فى السماح لمن يشاء أن يدخل تلك القاعة ويملأ جيوبه من المال بقدر ما يستطيع على ألاّ يستغرق فى ذلك إلا مقدار ما تدق الساعة عشر دقات ، فاذا انتهت المدة ولم يخرج الرجل اعتبرَ سارقاً ما يحمله من الجواهر وحُكم عليه بالرق مدة حياته

فكان يطمع فى هذا المال كثيرون كلّ يوم ، وكان عدد عبيد البارون يزداد بقدر عدد الذين طمعوا فى ماله لأنه لم ينج من هذه الأحبولة أحد . وهذا ما كان البارون يتوقعه ؛ ولم تخيب الأيام ظنه مرة واحدة

ففى ذات يوم مرّ على قصر هذا البارون شاعرٌ مطبوع ، وشاب مشهور بين قصور أمراء ألمانيا فى ذلك الحين بجمال ورقة شعره وفخامة صوته ومهارته البالغة فى الضرب على القيثارة . وكان يقضى حياته متنقلاً بها من قصر الى قصر

واتفق أن ابنة البارون ووحيدته دخلت فى ذلك اليوم فى عامها السادس عشر ، فطلب اليه البارون أن يحيى ليلة موسيقية تكريماً لها

وقبل أن ينصرف الشاعر طلب اليه البارون أن يدخل قاعة المال ويأخذ منها ما يشاء ، على شرط أن يكون خارج القاعة قبل أن تنتهى المدة المقررة ، وكأنه بهذا الطلب أراد أن يستأثر بهذا الشاعر ويستعبده كغيره من الشبان

ولكن الشاعر أجاب : « وماذا أفعل بمالك ؟ ! لست فى حاجة إليه ، لأننى أشعر أن فى نفسى من اللآلئ مالا تعد جواهرك الثمينة بجانبه شيئاً » ولكن البارون ألح عليه فأجاب طلبه

فلما كان الشاعر داخل القاعة أبصر من هذه الثغرة وردة انبهر من جمالها نظره وخفق لحسنها قلبه ، فوثب فوق المال المكدس واقتطف تلك الوردة وخرج مسرعاً قبل أن تنتهى المدة . فلما رآه البارون أول من خرج من القاعة دهش . وقال له « إن ما حملته من المال ملك لك » ولكن البارون لم يجد شيئاً مع الشاب سوى تلك الوردة الجميلة . فقال له « أهذا كل ما أخذته من القاعة ؟ ! » فقال الشاعر « إنى لم أر فى مالك ما هو أجمل منها ، بل ليس على الأرض ما هو أجمل منها . . . . »

ولم يكد ينتهى من حديثه حتى أقبلت الفتاة على والدها وحمرة الخجل تعلو وجنتيها . فلما رآها الشاعر دهش لجمالها الفاتن وقال متمماً حديثه مع والدها « . . . إلا هذه الفتاة » ثم طلب من البارون أن يسمح له بتقديم تلك الوردة هدية الى ابنته . فقالت الفتاة لأبيها : « إنه يفضلنى على هذه الوردة يا أبى ، وقد فضلها على كل جواهرك ؛ فليس على الأرض فارس أرق منه شعوراً ولا أشرف منه عاطفة ، ولا أصدق شعراً ، ولن أكون زوجة إلا له »

وهكذا أصبح هذا الشاعر الحق ، وذلك الشاب النبيل ، زوجاً لهذه الزهرة الحية الجميلة

« عن الانجليزية » كلية غردون علي محمد أحمد